**جامعة وهران 2**

**كلية العلوم الاجتماعية**

**قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا**

**شعبة: علم الاجتماع**

**وحدة: التغير الاجتماعي**

**أ.د عمار يزلي**

**الدرس 6**

**...تابع....النظريات التطورية**

**3/ التطورية التاريخية**

**أ/ شبنجلر والدورة الحياتية للحضارات**

من بين النظريات التي تتحدث عن الدورات الحضارية والتي يدخلها البعض ضمن النظريات التطورية الدائرية، نظرية "شينجلر"، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، والتي يشار إليها بنظرية الحتمية، أي حتمية اندثار وسقوط حضارة لتولد حضارة أخرى في مكان آخر. غير أن "شبنجلر" لا يعني بذلك أن الحضارة تموت، بل تضعف بعد انتهاء دورتها الزمنية، فتنهار أمام الغلبة بظهور قوة جديدة تتأسس على أشلاء أو "أنقاض" الحضارة القديمة، خاصة إذا علمنا أن الحضارات كانت تتشكل ضمن دائرة جغرافية محددة في كثير من الأحيان مسورة ومحصنة، مع ظهور الدولة/المدينة. فصراع الحضارات كان وراء انتهاء الدورة الزمنية لحضارة وثقافة عمرت مدة من الزمن، وحان وقت شيخوختها. فموت الحضارة ليس مطلقا، لأنه "لا شيء يُخلق، لا شيء يضيع، والكل يتحول"[[1]](#footnote-2) على حد تعبير ّلافوازييه. الحضارة السابقة أو المغلوبة تنقل إلى الحضارة الغالبة بقايا من فكرها وموروثها وتراثها المادي والثقافي الفكري، لأحداث التراكم عبر الحضارات.

من هذا المنطلق، لا يمكن "لشبنجلر" أن يجرم بدورة حضارة ميتة كلية بدون ترك بصمات على ما يليها، لهذا، حتى بدون أن يصنف نظريته التطورية على أنها خطية أو دائرية أو لولبية، فهو ضمنيا يشر إلى تطور على الطريقة البيولوجية والعلمية في علوم الأحياء، هذا العلم الذي كان "لافوازييه"أول من طرح فكرة أنه "لا شيء يخلق لا شيء يضيع، كل شيء يتحول". ورغم أنه يشير في "انهيار الغرب" إلى مقولة اقترضها من "كارل ماركس" بشأن "نهاية الرأسمالية"، فهو أيضا يرى "نهاية للحضارة"[[2]](#footnote-3)، والحضارة التي يعنيها هي الحضارة الغربية الرأسمالية العالمية. بهذا المعنى فهو يرى أن لكل بداية نهاية وأن الدورة الزمنية ستنتهي وسيأفل نجم كل حضارة مهما طالت أو كبرت ولتبنى على أنقاضها، قد يكون في مكان أبعد، حضارة أخرى..ستعرف نفس المصير.

رغم أن "شبنحلر" لم يفصل في آليات انهيار الحضارات وأفولها وانقراضها، إلا أنه يرى في ذلك ما يراه في الجسد البيولوجي، الذي عليه أن ينهي دورة حياة،لأن الأبدية لا وجود لها ضمن هذا الكون.

**ب/ التغير والتقدم**

كل تقدم Le progres، هو تغير، غير أنه ليس كل تغير تقدم. فالتقدم لا يعني التقدم في الزمن فقط، فالزمن دائم وموحد، أما المكان فمتغير ومختلف، مما يجعل التغير يبدو بطيئا في وقت معين أو في تاريخ أو لحظة معينة، بينما يكون أسرع في أوقات أخرى، وهذا يعود إلى طبيعة التغيير والتغير نفسها، بفعل الإنسان وفعل الطبيعة معا.

التغير الاجتماعي هو وليد تفاعلات داخلية وخارجية كما أوضحنا ذلك سابقا، وهم الفلاسفة الاجتماعيين منذ عهر الأنوار، كان يتمثل في البحث عن القوانين التي تتحكم في هذا التغير من أجل أن يتحكم فيها الإنسان ويسيرها وينظم علاقاتها وبنياتها ووظائفها داخل النسف الاجتماعي المحدد تاريخيا.

من هنا كانت المقاربات الكلاسيكية لدى فلاسفة عهد الانوار وما بعهدم من بينهم "جان جاك روسو" في "العقد الاجتماعي"[[3]](#footnote-4) وأيضا أوغست كونت، كما أسلفنا الذكر سابقا، خاصة فيما نبه إلى قاعدة عدم المساواة في نقل التغيير إلى مسافة تارخية أخرى وإحداث تغيير من داخل النسق ضمن "الحياة الفطرية" كما سماها أو فيما بعد ضمن "الملكية الفردية" التي نشأت بعد عهد "المشاعية" كما يسميها ماركس، أو حتى ضمن المرحلة الطويلة التي ستليها والتي تتضمن محطات تارخية اجتماعية طويلة نسبيا، سماها أوغست كونت بمرحلة "عدم المساواة"، وهي نفس المراحل التي لا حظ فيها كارل ماركس بأن "الصراع الطبقي" هو محرك عجلة التراخ دوما وغبر كل المحكات التاريخية، كما سنرى ذلك لاحقا.

ـ عند بعض من علماء الاجتماع وفلاسفة الاجتماع الكلاسيكيين، نجد أن الظروف الاجتماعية هي التي تحدد وتتحكم في طبيعة التغيير وتؤثر فيه: "سان سيمون"، باعتباره "اشتراكيا طوبويا" كما يراه "ماركس"، رأى في الانتقال من المرحلة الزراعة إلى الصناعة عاملا حاسما في التغيير والتطوير، وهذا ما يسري على ما قبل عصر الزراعة الذي كان أبطأ قياسا بما بعدها، وهذا يؤكد أن الإنسان هو من يسرع عبر عمله وإنتاجه وتطوره المهني والقكر والعقلي هو الآخر، وهو نفسه إنتاج تاريخ متطور تراكمي. نفس الأمر، يذهب إليه "أليكسي ديطوكفيل" في هذا الصدد عندما يربط الارستقراطية والديمقراطية بالحرية والفردانية كجزء من هذا الإنسان الذي يسرع وتيرة تاريخه بنفسه عندما يوفرها لنفسه من تلقاء نفسه. فالمجتمع الارستقراطي خلال عهد الإقطاع، كان معرقلا لحرية الفرد في التنقل والتجارة والعمل، وعنه نتج الضغط على المدن التي تنتج ولا تسوق، فكانت صرخة "آدم سميت" الاقتصادية "دعه يعمل، دعه يمر"[[4]](#footnote-5) والتي صارت مع ريكاردو ومن جاء بعده من الاقتصاديين، شعار الحرية الرأسمالية التي هي عنوان كل الحريات الفردية.

المقاربات البنيوية الوظيفية في الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية هي وليدة ما بعد النظرية الماركسية، وقد تكون نتاجها وردا عليه ضمن الاتجاهات التي تولدت عن تطور مناهج الدراسات الاجتماعية التاريخية وأيضا الأنثوبولوجية.

فبقدر ما حاول الباحثون فهم قوانين التغير والتطور والتبدل، بقدر ما ذهبوا للتاريخ الاجتماعي محاولة لفهمه واستخراج قانون عام يتحكم في هذه التحولات والتغيرات عبر الأزمنة والتاريخ الاجتماعي. هكذا اكتشف "ماركس" نظريته الجدلية في التغير عبر المادية التاريخية حين جعل محرك التاريخ ينحصر في الصراع الطبقي، بينما حصره ابن خلدون مثلا في "العصبية القبلية ـ وهو ما سنتطرق إليها فيما بعد ضمن هذا السياق. كما أن هناك الكثير من الباحثين السابقين ممن بحثوا عن العناصر المشتركة في التاريخ متأثرين بالمناهج التي ولدتها اكتشافات قرن الأنوار، خاصة العلوم التجريبية والتي حثت الباحثين والفلاسفة على الانتقال إلى التاريخ الإنساني لمحاولة فهمه عن طريق تطبيق المناهج العلمية الحديثة التي تتطلب "التجريب" التكرار، ولم يكن هذا متاحا في مخبر، فكان المخبر العام هو التاريخ الإنساني وكانت المراحل الزمنية هي حقل التجارب والبحوث والهينة التي عمل عليها، كل بحسب مقاربته ونظرته الفلسفية ولفكرية، وهذا ما جعل مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية يعيش حالة ميلاد جديد، كل من رحم الفلسفة ولميلاد عصر جديد للفلسفة الاجتماعية عبر العديد من المناهج التي تغيرت وتطورت بتطور الزمن نفسه وبتطور التصورات والأدوات المعرفية والمنهجية.

ب/ البنية الاجتماعية ووظائفها، من بين ما أثاره فيما بعد الباحثون في مجال العلوم الاجتماعية، أنها تمثل قانون التغير الداخلي وليس الصراع. فليس الصراع هو المحرك وإنما هو عدم التوافق والاختلال الوظيفي والبنيوي هو من يتسبب في الاضطراب وهدم الجدار الاجتماعي.

البنية والوظيفية، سنجدها ممثلة وحاضرة لدى الكثير من فلاسفة المجتمع والتاريخ، حتى دون الإقرار بها من طرفهم أنفسهم: نجد ذلك حاضرا في كتابات "منتسكيو"[[5]](#footnote-6) بشأن التاريخ والفلسفة والسياسة، خاصة في "رسائل فارسية"(1721م) ( Lettres persanes)، وأيضا مؤلفه "اعتبارات حول أسباب عظمة الرومان وأفولهم" (    Considérations *sur les causes de la grandeur des Romains et de leur décadence (1734)*)، ثم مؤلفه "حول روح القوانين"[[6]](#footnote-7)(  De l’esprit des lois (1748)). كما سنجدها ضمنيا ضمن القوانين التي تتحكم في التغير الاجتماعي عند مؤسس علم الاجتماع "إيميل دركهايم"[[7]](#footnote-8) نفسه، عندما عاد وذكر "بالعقد الاجتماعي" عند "جان جاك روسو"[[8]](#footnote-9)، وتذكير دركايم بمساهمة "منتسكيو" في هذا المجال.[[9]](#footnote-10)

كما يمكن استشفاف ذلك عن مؤسس علم الاجتماع في المفاهيم الاجتماعية التي أسس لها منها "الأنوميا"[[10]](#footnote-11) التي تعني الخلل والاضطراب في عمل بنية المجتمع وضوابطه ومعاييره.

هذا الاتجاه البنيوي الوظيفي[[11]](#footnote-12) سيكون حاضرا أكثر ضمن مناهج البحوث الانثروبولوجية مع بداية القرن العشرين،منهم: "ماكس فيبر"[[12]](#footnote-13)، "جيمس جورج فرايزر"[[13]](#footnote-14)، "رادكليف براون"[[14]](#footnote-15) ،و"مالينوفسكي"[[15]](#footnote-16) "ميرتون"[[16]](#footnote-17) خاصة في مسألة "التكيف والتواثق في نسق معين" عنده ضمن حقل الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية التي تمثل تفرعا عن علم الاجتماع، إضافة إلى" بارسنز"[[17]](#footnote-18) في إشاراته إلى "النسق الوظيفي والاجتماعية ".

1. <https://www.quebecscience.qc.ca/14-17-ans/encyclo/rien-ne-se-perd-rien-ne-se-cree/#:~:text=%C2%AB%20Rien%20ne%20se%20perd%2C%20rien,1794)%20a%20marqu%C3%A9%20les%20esprits.&text=Lavoisier%20est%20le%20premier%20%C3%A0,la%20conservation%20de%20la%20mati%C3%A8re>. [↑](#footnote-ref-2)
2. <http://www.e-litterature.net/publier3/spip.php?article334> [↑](#footnote-ref-3)
3. <https://www.les-philosophes.fr/rousseau/du-contrat-social/philosophe-des-lumieres.html> [↑](#footnote-ref-4)
4. <https://www.alternatives-economiques.fr/vraies-lois-de-leconomie-17-laisser-faire-laisser-passer-faut-c/00025004> [↑](#footnote-ref-5)
5. <https://la-philosophie.com/philosophie-montesquieu> [↑](#footnote-ref-6)
6. <https://la-philosophie.com/philosophie-montesquieu> [↑](#footnote-ref-7)
7. <http://classiques.uqac.ca/classiques/Durkheim_emile/durkheim.html> [↑](#footnote-ref-8)
8. Émile Durkheim, “[**Le “Contrat social” de Rousseau**](http://classiques.uqac.ca/classiques/Durkheim_emile/Montesquieu_Rousseau/Rousseau/Rousseau.html)” (1918) Texte téléchargeable !

   Voir : <http://classiques.uqac.ca/classiques/Durkheim_emile/durkheim.html> [↑](#footnote-ref-9)
9. Émile Durkheim, “[**La contribution de Montesquieu à la constitution de la science sociale**](http://classiques.uqac.ca/classiques/Durkheim_emile/Montesquieu_Rousseau/Montesquieu/Montesquieu.html)” (1892) Texte téléchargeable !

   Voir : <http://classiques.uqac.ca/classiques/Durkheim_emile/durkheim.html> [↑](#footnote-ref-10)
10. <http://www.toupie.org/Dictionnaire/Anomie.htm> [↑](#footnote-ref-11)
11. <https://www.researchgate.net/publication/311947387_Structuralisme_et_evolution_des_formes_l'exemple_du_pollen> [↑](#footnote-ref-12)
12. [https://www.cairn.info/revue-du-mauss-2012-2-page-285.htm#](https://www.cairn.info/revue-du-mauss-2012-2-page-285.htm)

    Voir aussi : <http://classiques.uqac.ca/classiques/Weber/weber_max.html> [↑](#footnote-ref-13)
13. <http://classiques.uqac.ca/classiques/frazer_james/frazer_james.html>

    Voir ; <http://classiques.uqac.ca/classiques/frazer_james/frazer_james_photo/frazer_james_photo.html> [↑](#footnote-ref-14)
14. <http://classiques.uqac.ca/classiques/radcliffe_brown/radcliffe_brown.html> [↑](#footnote-ref-15)
15. <https://wp.unil.ch/bases/2013/07/le-fonctionnalisme/> [↑](#footnote-ref-16)
16. <https://www.cairn.info/socialisation--9782200601874-page-39.htm> [↑](#footnote-ref-17)
17. <https://www.cairn.info/la-sociologie--9782912601858-page-67.htm> [↑](#footnote-ref-18)